

ضوء جبرير على مأساة شربيرة

هل قتل الحاكم بأمر الله أم اختفى؟

ممنرك من الروايات والاساطير المدهشة

للأستاذ محمد عبد الله عنان

في ليلة السابع والعشرين من شوال سنة ٤١١ من الهجرة (١٣ فبراير سنة ١٠٢١ م) خرج الحاكم بأمر الله يطوف كعادته في شعب القطم حيث اعتاد أن يرصد النجوم ، ثم لم يعد من جولته قط ، ولم يعرف إنسان خبره أو مصيره قط ؛ وكل ما عثر عليه بعد ذلك من آثاره ، حماره الأشهب وقد وجد معرقباً في طريق حلوان ، ثم ثيابه منزررة وبها آثار الطمان في بركة قريبة من حلوان

بيد أن اختفاء الحاكم في تلك الليلة الشهيرة ، واجتماع مختلف القرآن والآثار على مصرعه بيد الجناة ، لم يكن خاتمة حاسمة لعهد وسيرته وذكره . أجل أعلنت وفاة الحاكم ، وأقيم ولده أبو الحسن على مكانه في كرسى الخلافة ، وذلك يوم النحر (١٠ ذى الحجة سنة ٤١١ هـ) لأسابيع قلائل من اختفائه ، ولقب الظاهر لا عنراز دين الله ؛ وبدأت الخلافة الفاطمية عهداً جديداً ؛ ولكن ذكرى الخليفة الراحل لم تبق في الأذهان مدى حين ، وتثير في المجتمع مختلف الفروض والأساطير . ذلك أن أدلة الجنابة لم تكن واضحة ، ولم يبق دليل قاطع على القتل أو الوفاة ، ومن جهة أخرى فإن الحاكم بأمر الله لم يكن فيما زعموا شخصية عادية ينمرها العدم كما ينمر سائر البشر ، وتطوى آثارها من ذلك العالم لتفيض في العالم الآخر بتلك البساطة التي أحاطت باختفائه . ألم يكن الحاكم شخصية خارقة تهيم في الخفاء ، وتزعم الاتصال بعوالم الغيب ، وترنو إلى مدارك السموات فوق البشر ؟ ألم يقدمه الدعاة السريون إلى الناس بأنه « ناطق الزمان » وأنه آلة وروح حل في صورة البشر ؟ وهل من كانت هذه خواصه ومزاعمه يسرى عليه قانون الغناء كما يسرى على جميع الناس ؟

لقد أجمع معظم الروايات المعاصرة والمتأخرة على أن الحاكم ذهب ضحية المؤامرة والجريمة على اختلاف بينها في مديري المؤامرة

ومرتكبي الجريمة . ومعظمها على أن الذي دبر المؤامرة اخته الأميرة ست الملك ، وذلك لما بدا من إسرائه في قتل الزعماء ورجال الدولة ، وما ارتكب من التصرفات العنيفة المتناقضة التي هزت أسس المجتمع وقلبت أوضاعه ؛ وأخيراً لما جنح إليه من حماية الدعاة الملاحدة الذين نادوا بالوهيته ؛ فهذه الأسباب حسبما تقول الرواية هي التي حملت أخته على تدبير مصرعه اتقاء لنشوب ثورة تودي بالعرش وبتراث الدولة الفاطمية كله ؛ أما شريك ست الملك ومنفذ الجريمة ، فهو الحسين بن دواس زعيم قبيلة كتامة ، وكان يخشى سطوة الحاكم وقتكه ؛ وأما القتل فهم عبيده أو هم جماعة من البدو اعترضوا الحاكم في طريقه ليلة اختفائه بحجة التماس الاحسان والصلة ، ورتبهم المتآمرون لقتله ؛ أما جثته فقد حملها الجناة إلى أخته فدفنتها في نفس مجلسها ؛ هذا ملخص ما تقوله الرواية في شأن المؤامرة والجريمة

وهذه الروايات ليست موضوعنا في هذا البحث ؛ وهي ليست كل شيء في تلك المأساة العجيبة ؛ وإنما نتقي في هذا البحث بطائفة أخرى من روايات ذات نوع خاص ودلالة خاصة ، لا تأخذ بنظرية المؤامرة أو الجريمة ، ولكنها تؤيد فكرة الاختفاء العمد والهجرة الأبدية ، وتسبغ بذلك على ذهاب الحاكم لونا من الخفاء الغامض ، كذلك الذي يفمر شخصيته وحياته كلها ؛ وإذا كانت هذه الروايات تفتح في مجموعها إلى نوع من الأسطورة ، فأنها مع ذلك تدخل في عداد التاريخ وتستحق الدرس بهذه الصفة ، خصوصاً ، وأن ما تقدمه إلينا من التفاصيل والوقائع ليس في ذاته مسحتبلاً ولا خارقاً

وأول رواية من هذا النوع رواية كنسية كتبت في عصر الحاكم ذاته ، ووردت ضمن سير البطارقة ، أو سير البيعة المقدسة في ترجمة الأنبا زخاريا البطريرك القبطي المعاصر للحاكم ؛ وخلصتها ، أن الحاكم خرج إلى الجبل ذات ليلة ، وسار في الجبل ومعه ركابي واحد إلى أن بلغ حلوان ، ثم نزل عن حماره ؛ وأمر الركابي أن يعرقه ففعل ، ثم أمره بالانصراف إلى القصر وتركه بمفرده ، فعاد الركابي كما أمر ؛ فلما لم يعد إلى القصر في اليوم التالي سأل رجال القصر هذا الركابي عن سيده ، فأجابهم بأنه تركه في حلوان ، وعاد وحده نزولاً على رغبتة ، فمضوا في طلبه ، فوجدوا الحمار معرقباً ، وبخنوا عن الحاكم في كل موضع ،

البحيرة ونزل عند بعض البدو ، وتظاهر بالنبوة ومعرفة الغيب واستمر في دعواه أنه الحاكم وأنه يمتزل الحياة العامة حتى ينتهي قطع طالعه الذي يخشاه ؛ ولما ذاع أمره ، واهتمت السلطات بطاردته توارى عن الأنظار ، ولبت مختلفاً حتى عرف بأمره سانونيوس البطرك ، وأنفذ إليه مالا وتمهده بموته ورعايته^(١)

وأول ما بلغت النظر في هذه الرواية الكنسية هو أنها لا تشير أية إشارة إلى فكرة المؤامرة أو الجرعة ، بل لا تشير مطلقاً إلى فكرة الوفاة ، ولكنها تميل في مجوعها إلى تأييد فكرة الغيبة والاختفاء ، وتستأنس في ذلك بالاشاعات والأساطير التي ذاعت في ذلك الشأن منذ اختفاء الحاكم ، واستمرت دائمة أيام ولده الظاهر

على أن الرواية الكنسية لا تقف عند ذلك الحد ؛ ذلك أن ابن العبري يحدثنا عن مصير الحاكم بعد اختفائه ، ويقول لنا إن كثيراً من الناس اعتقدوا حين اختفائه أنه لجأ إلى مكان بالصحراء واعتنق النصرانية ، ثم تهرب وقضى أيامه هنالك ؛ ثم يقول إنه ، أي المؤرخ ، حينما كان بدمشق سمع بعض كتاب الأقباط يقولون إن الحاكم حينما اشتد في مطاردة النصارى ظهر له يسوع المسيح كما ظهر لبولس الرسول ، فأمن به ، وتوارى سرّاً في الصحراء حتى توفي^(٢)

ومما يجدر ذكره أن هذه الأسطورة — أي أسطورة تنصر الحاكم وترهبه — ليست هي الأولى من نوعها ، فقد نسب جده المعز لدين الله إلى مثل ما نسب إليه ، وزعمت الرواية الكنسية أن المعز تأثر بما شهده من معجزة نصرانية هي تحريك جبل القطم لدى صلوات الأبحار النصارى وتضرعاتهم ، فنزل عن الخلافة لولده المعز ، وتنصر وترهب ، ودفن بأحدى الكنائس^(٣)

ويجب لكي نقدر مغزى هذه الروايات الكنسية أن نذكر الظروف التي نشأت فيها ، وأن نذكر موقف الكنيسة القبطية ونفسية المجتمع النصراني في عصر الحاكم بأمر الله : فقد عانت الكنيسة وعانى النصارى في هذا العصر ضرباً مرهقاً من

(١) المخطوط الكنسي المشار إليه (رقم ٦٤٣٤ ح) لوحة ٩٣

(٢) لم ترد هذه الرواية في جميع التراجم العربية التي انتهت إلينا من تاريخ ابن العبري ؛ ولكن الظاهر أنها وردت في الأصل السرياني . وقد كتب ابن العبري تاريخه بالسريانية ثم ترجم بعد ذلك ، وأوردتها المستشرق دي سامي في كتابه عن الدروز

(٣) كتاب الجريدة التاريخية في تاريخ الكنيسة ج ٢ ص ٢٤٨ .
وراجع كتابي مصر الإسلامية ص ٧٨ وما بعدها

فلم يجدوه ولم يقفوا له على خبر أو أثر^(١)

ووردت في تاريخ الكنائس المنسوب لأبي صالح الأرمني ، والذي كتب في أواخر القرن السادس الهجري رواية مماثلة نصها : « وبهذه الناحية (أي حلوان) نزل الأمام الحاكم بأمر الله عن الحمار الذي كان راكبه ، وتقدم إلى الركب الذي كان يصحبه إلى حيث يذهب بأن يعرقب الحمار ، وذهب هو وحده إلى داخل البرية ، ولم يرجع بمود ، ولا عرف أين توجه إلى يومنا هذا ، وكان ذلك في شوال سنة إحدى عشرة وأربعمائة »^(٢)

ويشير مؤرخ نصراني آخر ، هو ابن العبري الذي كتب تاريخه في أواخر القرن السابع الهجري إلى مثل هذا الرأي ، فيقول في حوادث سنة ٤١١ هـ : « وفيها فقد الحاكم بن المعز ابن المعز الملوي صاحب مصر ، ولم يعرف له خبر » ، ثم ينقل قصة طوافه ومصرعه حسب رواها القضاة ، وذلك على سبيل الرواية والترديد فقط^(٣)

وتقول الرواية الكنسية أيضاً ، « ولم نزل الناس مدة غيبة الحاكم والى أن انقضى مدة ولده يقولون إنه بالحياة . وكثير كانوا يتزبون بزبه ويقول كل واحد منهم أما الحاكم ، يترأثوا للناس في الجبال حتى يأخذوا منهم الدنانير » ثم تروي لنا قصة رجل يسمى « شروط » كان نصرانياً وأسلم ثم تعلم السحر والشعوذة ، وكان يشبه الحاكم شهاً عجيباً ، ولو أنه أطول منه بقليل ؛ فلما اختفى الحاكم ظهر في الناس باسم « أبي العرب » ، وادعى أنه الحاكم ، والتف حوله بعض الناس ، وكان يطالب الأثغيا بالمال ، ويقول لهم إنه سيميده إليهم عند رجوعه إلى مملكته ؛ ثم استتر طيلة عهد الظاهر ، وهو مستمر على دعواه حتى اعتقد كثير من الناس أنه الحاكم ، وأنه يخفي نفسه لأمر مكتوم لا يعرفه سواه ؛ وفي أوائل عهد المستنصر ، نزع إلى

(١) وردت هذه الرواية الكنسية بتفاصيلها التي أوردناها في مخطوط كنسي حصلت دار الكتب أخيراً على نسخة فوتوغرافية منه ، ويضمن كتاب سير الآباء البطارقة تأليف ساويرس بن الفقع أسقف الأشمونين القهبري ؛ ثم فصولاً عديدة أخرى تدبيل على كتاب ساويرس في سير البطارقة أيضاً جمعت تحت عنوان « سير اليممة المقدسة » ويحفظ هذا المخطوط بدار الكتب برقم ٦٤٣٤ ح

(٢) تاريخ أبي صالح الأرمني ص ٥٢ ب

(٣) مختصر تاريخ الدول طبعة اكسفورد ص ٣٣٥

إن في هذه الخاتمة لأعظم عقاب للأمم ، وأعظم ترضية للكنيسة
والمؤمنين ، وأبلغ انتقام يمكن أن نزله الكنيسة بخصيمها

— ٢ —

ولا ريب أن التاريخ لا يمكن أن يحفل بمثل هذه الأسطورة
التي لم يؤيدها أى دليل أو أية قرينة سوى الرواية الكنسية التي
تفرد بتريدها ، والتي تم في الحال عما وراءها من التنايات
والبواعث ؛ بيد أن هنالك في الرواية الكنسية الأولى شيئاً واحداً
يمكن الوقوف به ، وهو ما تنوء به من اختفاء الحاكم أو غيبته
دون الإشارة إلى مصرعه بصورة من الصور . ذلك أن هذه النظرية
— نظرية الاختفاء — لم تكن دون صدى في حوادث العصر
ووثائقه . وإذا استبعدنا فكرة المؤامرة والجريمة مدى لحظة ،
واستبعدنا ما ينسب إلى الأميرة ست الملك من أنها هي التي دبرت
مصرع أخيها على الوجه الذي بسطنا ، فإن الحوادث والتراخي
الأولى التي عقبته ليلة السابع والعشرين من شوال تسبغ على
فكرة الاختفاء مسحة من الاحتمال . ذلك أن مصرع الحاكم
أو وفاته لم تكن أول ما خطر لرجال القصر والدولة ، بل كان أول
ما خطر لهم فكرة النية ، فخرجوا في أثر الحاكم عدة مرات
يبحثون عنه ويستقصون أثره قبل أن يؤمنوا بمصرعه ؛ ولبت
الكرمي الخلابي شاعراً مدى ستة أسابيع حتى يوم عيد النحر
(المأثر من ذى الحجّة) ، ولم يناد بالخليفة الجديد حتى استقر
لدى رجال الدولة أن الحاكم قد لقي حتفه بصورة من الصور أو
على الأقل قد ذهب إلى غير ما عودة : بيد أن فكرة مصرعه ،
مهما كانت الصورة التي صورت بها ، ومهما كان الجنّة الذين
نسب تديرها أو تنفيذها إليهم ، لم تكن فيما يبدو من روايات
العصر وأحاديثه ، حقيقة مقررة ، ولم تكن رأى السواد الأعظم
من الناس . بل لقد أشارت بمض الروايات التي سلمت بمصرع
الحاكم إلى صدى هذا الشك في مقتله ؛ فزى ابن خلكان مثلاً
يقول في ترجمة الظاهر ولد الحاكم ما يأتي : « وكانت ولايته بعد
أبيه بئد ، لأن أباه فقد في السابع والعشرين من شوال سنة إحدى
عشرة وأربعمائة ؛ وكان الناس يرجون ظهوره ، ويتيمنون آثاره إلى
أن تحققوا عدمه ، فأقاموا ولده المذكور في يوم النحر »^(١)

(١) الدليل تاريخ — الجزء الثانية —
محمد عبد الله هانم

(١) ابن خلكان ج ١ ص ٤٦٣

الاضطهاد المأدى والمعنوي ، وجازت الكنيسة شريحة نزلت
بها منذ عصر الاضطهاد الروماني . فهدمت بيها وأديارها ، ونهبت
أموالها ، وبدد ترانها المقدس ، وتل الأحبار كل هبة ونفوذ ،
وامتحن الكثير منهم ، وعانى المجتمع النصراني من القوانين
والفروض الجديدة شر ما تمنيه أقلية مضطهدة من ضروب
المسف والذلة والارهاق ؛ ومن ثم فإن الروايات الكنسية المعاصرة
تصور لنا هذا العصر ، عصر استشهاد للكنيسة ورجالها ،
وتحدثنا في مواطن عديدة عن مختلف المعجزات النصرانية التي
ظهرت في هذا العصر ، والتي كانت الكنيسة تستمد منها المزماء
والصبر على منالبة المهنة ؛ ومنها قصة فتى مسلم يسمى ابن رجاء
تأثر بمعجزات المسيح فتتصر وترهب ، ورسوه قديماً باسم بولس
ولقبوه بالواضح ؛ ومنها قصة أبي نجاح النصراني ، وكان من أعيانهم
وأكابرهم ، فأراد الحاكم أن يرغمه على الاسلام فأبى فأمر بجلده
حتى توفى ، وزعمت الأسطورة أن الساء كان يقطر من لحيته أثناء
ضربه ، وأن المسيح ظهر له وتولى سقايته أثناء تمذيبه ؛ وقصة
الرئيس الفهد الوزير ، فقد قتله الحاكم لأنه أبى الاسلام ، وأمر
بأحراق جثته ، ولكن النار لم تؤثر فيها ؛ وقصة البطريرك زخاريا
فقد أعتقله الحاكم وطرحه للسباع لتأكله ولكنها نفرت منه
ولم تمسه بأذى^(١) ؛ وغير ذلك من الخوارق المزعومة التي تدل على
روح الكنيسة وعقليتها في هذا الظرف المصيب ، وعلى جنوحها
إلى الاستعانة بسيل من الأساطير والمعجزات الجديدة لتأييد
هيبتها المفضية ، وتقوية نفوس رعاياها والمؤمنين بقدرتها وسلطانها
فهل نمجيب إذا كانت الرواية الكنسية تحدثنا عن مصير
الحاكم بأمر الله بهذا الروح ذاته ، فتحيط هذا المصير بأسطورة من
أساطيرها ، وتضيف بذلك معجزة إلى معجزاتها ؟ إن في تقديم
الحاكم بأمر الله ، الخليفة الفاطمي ، في ثوب النادم المستنيب ،
يبدو له المسيح ، فيرتد عن دينه ويمتنق النصرانية ، ثم يترهب ،
ويقضى بقية حياته في بعض الأديار النصرانية ، لأعظم معجزة
تقدمها الكنيسة إلى المؤمنين ، وأعظم ظفر تستطيع أن تصوره
لرعاياها في هداية ذلك الذي أنزل بهم شر البلايا والمحن أعواماً
مديدة ، ثم انتهى به اللطاف إلى أن غدا جندياً من جند المسيح .

(١) راجع المخطوط الكسبي انتشار إبه لوحة ١١ و ١٣ و ١٥

و ١٠٧ و ١١٠